أغانى الشعب

إسلمى يا مصر . نشيد الاستقلال . البحر المنفجر

« لم يوفق شاعر من شعراء العربية توفيق الرافعى فى تأليف الأناشيد ، ولم يكتب لنشيد وطنى أو طائفى من الذيوع والشهرة والانسجام مع الألحان ما كتب لأناشيد الرافعى ؛ فهو بذلك خليق أن نسميه « شاعر الأناشيد »

وقد ولع منذ نشأته فى الشعر بالأناشيد الوطنية والأغانى الشعبية ، يفتنّ فى نظمها ، ويبدع فى أوزانها وأساليبها ؛ ففى سنة ١٩٠٣ أخرج فى الجزء الأول من ديوانه بضع قصائد وطنية ، تفيض عاطفة وتشتعل حماسة ؛ واشتهر من بينها قطعته (الوطن) التى يقول فى مطلعها :

بلادى هواها فى لسانى وفى دمى ... يمجّدها قلبى ويدعو لها فمى

وذاعت على ألسنة تلاميذ المدارس ، يحملهم المعلمون على استظهارها فى دروس المحفوظات إلى يومنا هذا ، كما اشتهر كثير من قصائده الوطنية وأغانيه الشعبية . وجاء فى هامش ديوانه بعد تمام هذه المقطوعات : « قد تمت القطع التى نظمت للنشء من تلامذة المدارس ، وقال ناظمها : إنه إذا وجد الناس أقبلوا عليها أقبل هو على نظم غيرها مما هو أرقى ، غير مبال بوعورة هذا المسلك الذى لم يسلكه قبله أحد ؛ فها نحن أولاء ننتظر من الصحفيين وشبان العصر أن يأخذوا بيده فى هذا المشروع ، حتى لا يغيض ما بقى فى ذلك الينبوع[1] ... »

(١) شرح الرافعى الأجزاء الثلاثة من ديوانه ، ولكنه لسبب ما ، نسب الشرح إلى أخيه المرحوم محمد كامل الرافعى ، وهو بابه من الدعاية التى كان يدعوها لنفسه فى أول عهده بالشعر ؛ ومن هذا يرى القارئ حديث الرافعى عن نفسه فى هذه العبارة بضمير الغائب ، على أنها من قوله هو نفسه .

ثم دأب على نظم أمثال هذه الأغانى ، ينشر منها طرفة رائعة فى كل جزء من ديوانه ، فنشر نشيد الفلاحة المصرية ، وأرجوحة سامى ، وغيرهما ، وأذاع فى الصحف كثيراً مما نظم من « أغانى الشعب »

وعرف الرافعى فى نفسه هذه الميزة التى فاق بهـا شعراء العربية فى باب هو من الشعر فى ذلك العصر من صلبه وقوامه ، فأجمع أمره على إخراج ديوان « أغانى الشعب » يضع فيه لكل جماعة أو طائفة من طوائف الشعب نشيداً أو أغنية عربية تنطق بخواطرها وتعبر عن أمانيها ؛ وقد جرى الرافعى فى هذا الميدان شوطاً بعيداً ، وأنجز طائفة كبيرة من أغانى الشعب نشر بعضها وما يزال سائرها فى طى الكتمان بين أوراقه الخاصة ومؤلفاته التى لم تنشر بعد .

وإنك لترى الرافعى فى هـذه الأغانى والأناشيد ، له طابع وروح غير ما تعرف له فى سائر شعره ، فتؤمن غير مضلل أن الرافعى هبة الزمان للعربية لتزيد فيها هذا الفن الشعرى البديع الذى تقطعت أنفاس شعراء العربية دونه منذ أنشد شاعرهم فى الزمان البعيد : « نحن بنو الموت إذا الموت نزلْ ... » ثم لم يقل أحد من بعده شعراً يترنم به فى الحرب ، أو يدعو إلى الجهاد ، أو يستنفر إلى المعركة ، حتى أنشد الرافعى ...

ويقينى أن اسم الرافعى إذا كتب له الخلود بين أسماء الشعراء فى العربية ، فلن يكون خلوده وذكره لأنه ناظم ديوان الرافعى ، أو ديوان النظرات ، أو المدائح الملكية فى المغفور له الملك فؤاد ، أو قصائد الحب والغزل بفلانة وفلانة من حبائبه الكثيرات ، ولكنه سيخلد ويذكر لأنه شاعر الأناشيد ...

وأشهر أناشيده : « اسلمى يا مصر » و « إلى العلا إلى العلا بنى الوطن » و « حماة الحمى ... » ولكل نشيد تاريخ :

* * *

نهضت الأمة نهضتها الرائعة فى سنة ١٩١٩ ، ودوّى صوت الشعب هاتفاً : إلى المجد إلى المجد ، إلى الموت أو الحرية ؛ وصاح صائح الجهاد يدعو كل نفس

من داخلها، فإذا الأمة صوت واحد ، على رأى واحد، إلى هدف واحد ؛ وإذا مظهر رائع من مظاهر الإيمان بحق الموجود فى وجوده يتمثل فى كل مصرى ، ويستعلن على كل لسان فى مصر .

واجتمع رأى طائفة من رجالات مصر على أن يكون لهذه النهضة نشيد يعبر عن أمانيها وغايتها ، ويكون أغنية كل مصرى ، تجتمع عندها خواطر نفسه ، وخلجات فكره ، وهمسات قلبه ؛ فيكون صوتها من صوته ، ولحنها من أحلامه ، وبيانها من معانى نفسه .

وتلفَّت الناس يفتشون عن ذلك الشاعر الموهوب الذى يؤملون أن تتحدث الأمة بلسانه وتهتف بشعره . وسمَّتْ لجنة النشيد جائزةً وضربت أجلاً ...

وتبارى الشعراء فى الافتنان والإجادة ، وتقدم كل شاعر ببضاعته ، وتقدم الرافعى فيمن تقدم ؛ ولكن اثنين لهما مكانهما وخطرهما بين شعراء العصر لم يتقدما بشىء إلى لجنة النشيد : هما شوقى أمير الشعراء ، وحافظ شاعر النيل . أما حافظ فلأنه من المحكمين فى اختيار النشيد ، وأما شوقى ... فمن يدرى ؟

وكان على رأس « لجنة النشيد » الوزير العالم الأديب ، الأستاذ جعفر ولى باشا ، فكأنما عز عليه أن ينتهى الأجل المضروب فيتقدم الرافعى ، ويتقدم الهراوى ، ويتقدم عبد الرحمن صدقى ، ويتقدم غير هؤلاء ممن يقول الشعر ، وممن لا يحسن إلا أن يزن فاعلاتن ومفعولاتن على كلام ، ولا يتقدم شوقى وحافظ .

ونشأت اللجنة الأجل المضروب ، وسعى الساعون إلى الشاعرين الكبيرين ليحملوهما على الاشتراك فى المباراة ؛ فأما حافظ فأصر وأبى ، وأما شوقى ... يرحمه الله .. لقد كان حريصاً على أن يقول الناس فى كل مناسبة : لقد قال شوقى .. ولكن ماذا يقول فى ذلك اليوم ؟

وكان لشوقى نشيد أنشأه منذ عهد لتفتتح به (فرقة عكاشة) موسمها التمثيلى ؛ فلماذا عليه لو تقدم بهذا النشيد القديم إلى لجنة المباراة ؟

وتقدم شوقى إلى اللجنة بنشيده المشهور :

بنى مصرٍ مكانكمو تهيَّا فهيا مهِّدوا للمجـــد هيَّا

وتساءل الأدباء بينهم : لماذا مدّت اللجنة الأجل المضروب ؟ فلم يلبثوا أن جاءهم الجواب الصريح ؛ فعرفوا أن اللجنة لم تفعلها إلا حرصاً على أن يكون النشيد المختار من نظم شوقى ...

عندئذ نجمت ثورة أدبية حامية ، وتمرد الأدباء على اللجنة وحكم اللجنة ، وهل كان لهم أن يطمئنوا إلى عدالتها وقد ذاع الحكم قبل موعد الفصل فى القضية ؟

وكان الرافعى على رأس الثائرين ، فأنشأ بضع مقالات فى (الأخبار) ، وللأخبار يومئذ مذهبها السياسى ، وكاتبها الأول هو المرحوم أمين بك الرافعى ؛ فسحب الرافعى نشيده من اللجنة قبل أن يسمع الحكم فيه ، وراح يعلنها ثورة صاخبة على اللجنة وأعضاء اللجنة ، وعلى شوقى وأنصار شوقى ، وقال فى نشيده ما يقال وما لا يقال ، وتابعه جمهرة من الأدباء ؛ فكتب المازنى والعقاد فى (الديوان) وكتب غير المـازنى والعقاد ؛ وشوقى رحمه الله رجل كان على فضله ومكانته وعلى منزلته فى الشعر ، ضيق الصدر بالنقد والناقدين ؛ فمن هذا كان بينه وبين الرافعى شىء من يومئذ ، إن لم يكن من قبلُ يومَ نشر الرافعى مقاله فى (الثريا) عن شعراء العصر فى سنة ١٩٠٥ ؛ فما التقيا من بَعد حتى لقيا الله ؛ على أن أحداً من أدباء العربية لم ينصف شوقى بعد موته ولم يكتب عنه مثل ما كتب الرافعى عن شوقى فى مقتطف ديسمبر سنة ١٩٣٢ ، وهو نموذج من الأدب الوصفى أحسبه نادر المثال فيما يكتب الكتاب عن الأدباء المعاصرين .

* * *

ومضت لجنة المباراة فى طريقها غير آبهة لما يقال ، ومضى الرافعى فى ثورته ؛ ثم لم يلبث أن جمع لجنة غير اللجنة ، من أصدقائه وصفوته والآخذين عنه ، لتنظر فى نشيد الرافعى وحده

وأصدرت اللجنة الأصيلة حكمها ، فكان الفائز الأول هو شوقى ، وفاز من بعده الهراوى وعبد الرحمن صدقى ، وأعلنت اللجنة الأخرى أن نشيد الرافعى هو

النشيد القومى المصرى ... وسبّقت بين المغنين جائزة ، ليصنعوا لحناً لنشيد الرافعى :

إلى العلا ، إلى العلا ، بنى الوطنْ   إلى العـلا ، كلُّ فتاةٍ وفتى

وفاز الموسيقار الكبير الأستاذ منصور عوض بالسبق إلى اللحن والجائزة !

ليس من همى هنا أن أوازن بين نشيدى شوقى والرافعى ؛ فقد مات نشيد الرافعى (إلى العلا . . .) بعد ما سبقه نشيد شوقى إلى الموت بعشر سنوات ، ولم تُجْدِ كل المحاولات فى بعثه ونشره ... وإن كان لى أن أقول شيئاً هنا فى الفرق بين النشيدين فهو أن أصف كيف كان استقبال الناس لنشيد الرافعى واحتفاؤهم به فى كل مكان ، وكيف كان نشيد شوقى

لقد سمعت نشيد الرافعى أول ما سمعته فى حفل رسمى أقيم لإذاعته بطنطا فى سنة ١٩٢١ أو ١٩٢٢ بمسرح البلدية ؛ فما أحسب أنى رأيت نشيداً احتفل له الناس ما احتفلوا لنشيد الرافعى يومئذ ؛ فإذا كان قد مات بعد ذلك بسنين وجر عليه النسيانُ أذيالَه ، فما أظن ذلك كان لضعف فيه أو نقص يعيبه ، ولكننا نعيش فى شعب أكبر فضائله أن ينسى ... وعند الله الجزاء ... !

اسلمى يا مصر

وتطورت الفكرة الوطنية فتمثلت بشرا فى سعد زغلول ؛ فهو المصرى الذى لو أرادوا أن يمثلوا ذلك الشعب العريق إنساناً تراه العين لما وجدوا إلا صورته ، ولو سألوا : من الرجل الذى يقول أنا الأمةُ صادقاً لما وجدوا غيره ...

وتطورت فكرة النشيد القومى عند الرافعى ، فرأى رؤياه فى منامه .. فلما أصبح ألّف نشيده « اسلمى يا مصر » وما كان هم الرافعى عند ما ألفه أن يجعله نشيداً قومياً ؛ إنما قصد إلى أن يجعله بياناً رمزياً على لسان سعد ، أو كما يقول الرافعى فى خطابه إلى سعد فى جبل طارق :

«وما أردت بإظهار نشيدك إلا أن تظهر فى كل فرد من الأمة على قدر استعداده،

ويبقى اسمك الجليل مع كل مصرى على الدهر ليكون مصدراً من مصادر إمداده

« ويقولون إنه نشيد يقربك من الأجيال الآتية ، وأنا أقول إنهم هم يتقربون به إليك ، ويجدون منه الوسيلة لتقبيل اسمك المحبوب إذ لا يستطيعون مثلنا تقبيل يديك ، ويعلمون فى كل زمن من شرح هذا الاسم الكبير أنه الرجل الذى خط قلم الأزل بيده كتاب نهضته الكريمة ، واختاره الله للأمة كما اختار الأنبياء إلا أنه نبى الفكر والعزيمة ... »

قلت : إن الرافعى لم يكن يعنى بإنشاء نشيده « اسلمى يا مصر » أن يجعله نشيداً قومياً ، فإنه لمطمئن إلى أن نشيده « إلى العلا .. » ماض فى طريقه إلى هذا الهدف ؛ إنما كان يعنى أن يضع فى هذا النشيد صوتَ سعد كما تصورت حقيقتُه فى نفسه ؛ لكن نشيده ما كاد ينشر ويذاع ، حتى أبدت البلاد رأيها ؛ فقام الطلبة والأدباء والفنانون يدعون دعوتهم إلى اتخاذه نشيداً قومياً ليجعلوا صوتَ سعد فى هذا النشيد صوتَ البلاد ، وليتخذوا ما فيه من معانى المجد شعاراً لكل مصرى ، أن كان صوت سعد يومئذ هو صوت كل مصرى

وتألفت اللجان فى مختلف البلاد لإعلانه وإذاعته ، وتسابق الملحنون إلى ضبط نغمته ورسم لحنه ؛ فكان أسبقهم إلى ذلك الموسيقار منصور عوض ، والموسيقار صفر على ؛ واللحن الأول أدق اللحنين وأوفاهما بالغاية ؛ ولكن اللحن الثانى أذيع وأعم ، وبه تنشده فرق الكشافة المصرية بعد أن صار نشيدها الرسمى

نشيد الاستقلال

ونجحت الدعوة نجاحها المؤمل ، فصار نشيد « اسلمى يا مصر » هو نشيد مصر القومى من سنة ١٩٢٣ إلى سنة ١٩٣٦ حين أعلنت الحكومة عن المباراة العامة لتأليف نشيد قومى يهتف به الشعب وتعترف به الحكومة

فى هذه الفترة كان الرافعى على نية إنشاء نشيد وطنى جديد ، إجابة لرغبة تقدم بها إليه شبان الوفد ؛ فما أذاعت الحكومة بيانها عن المباراة حتى تقدم بنشيده الجديد :

حماةَ الحمى ، يا حماة الحمى هلمُّوا ، هلموا لمجد الزمن
لقد صرخت فى العروق الدما نموت ، نموت ، ويحيا الوطن

كما تقدم بنشيده الآخر : « اسلمى يا مصر » ؛ ولأمر ما استبعدت لجنة المباراة النشيد الثانى ، ومنحته الجائزة الثانية على النشيد الأول . وما أريد أن أعرض لرأى اللجنة وحكمها فى هـذا النشيد الجديد ، فذلك باب من النقد الأدبى ليس من قصدى التعرض له فى هذا المقال ؛ فان للتاريخ الأدبى حكمه فى هذا الشأن ، يوم تُنسى الأحقاد وتَمحى العدوات

* * *

ليس ما ذكرت هو كل جهد الرافعى فى الأناشيد ، وليس بهذا وحده يستحق أن نخلع عليه هذا اللقب الذى لا أرى غيره من شعراء العربية جديراً به ؛ فما أستطيع أن أحصى كل ما أنشأ الرافعى فى هذا الباب ، وحسبى أن أذكّر بنشيده الخالد الذى أنشأه فى سنة ١٩٢٧ ليكون شعار (الشبان المسلمين) ، فهنا ، فى هذا النشيد يُعرف الرافعى الشاعر المسلم المجاهد الذى وقف قلمه وبيانه على خدمة المسلمين والعرب

أما « نشيد الملك » ، و « نشيد بنت النيل » ، و « نشـد الطلبة » الذى أنشأه ليكون به هتاف تلاميذ المدرسة الثانوية بطنطا — فذلك فن من البيان له فصل بعنوانه فى تاريخ الأدب العربى

البحر المنفجر

فى أناشيد الرافعى عامة ، تعرف له طابعاً وروحاً ونغمة هى سر نجاحه فيما ألف من أناشيد ، ويميل فى أناشيده الوطنية خاصة إلى إبراز معنى القوة فى سبك اللفظ ولحن القول ؛ ولو أنك سمعته مرة وهو فى خلوته الشعرية يحاول شيئاً من هذه الأناشيد لسمعت لحناً له رنين يشـترك فيه صوت الرافعى ، ونقر أصابعه على المـكتب وخفق نعله على أرض المـكان ؛ وعلى أن الرافعى كان أصم لا يسمع قصف المدافع ، فإنه كان لا يستوى له النظم إلا فى مثل هذه الحال . واسألوا

صديقنا الأستاذ مصطفى درويش مفتش التحقيقات بوزارة المعارف : ماذا رأى وماذا سمع يوم صحب الرافعي من طنطا إلى القاهرة وكان يؤلف في القطار نشيده « حماة الحمى ... » ؟

واسألوا الآنسة ماري قدسي معلمة الموسيقى بوزارة المعارف تحدثكم عن خبر الرافعي يوم جلس إليها وهي تعالج تلحين نشيده « بنت النيل » ويوم جلستْ إليه تعزف له على البيانة لحنها لنشيد « اسلمي يا مصر » وهو يسمعها بعينيه تتبعان أصابعها على المعزف وهو ينقر على الأرض بعصاه ورجليه وينفخ شدقيه ؛ وفي أذنيه وقر ثقيل ... !

هذه النغمة التي كانت تتمثل للرافعي في سمعه الباطن وهو يعالج نشيداً من الأناشيد ، كان لها أثرها الفني في عمله ، وهي هي التي كانت تشعره أحياناً بالعجز عن أن يجد في موازين الشعر العربي النغمة التي كان يريدها في أناشيده كطبل الحرب ؛ فلما هم أن يضع نشيد الطلبة :

مَجْداً مَجْداً مَدْرَسَتي مدرستي مَجْداً مَجْداً

عن علمي عن تربيتي مدرستي مَجْداً مَجْـــداً

لم يجد له نغمة تلائمه فيما يعرف من بحور الشعر ، فاخترع له هذا الميزان الذي يزنه به قارئه ، وسماه : « طبل الحرب » ولكن صاحب المقطم أشار عليه أن يسميه « البحر المنفجر » . وتفعيلاته « فَعْلُنْ ، فَعْلُنْ ، فُلْ » مكررة في كل شطر ، مع بعض علل في الميزان يمكن إدراكها بالموازنة بين الشعر وتفعيلاته .

* * *

هذا هو الرافعي شاعر الأناشيد ، وهذا جهده وما بلغ ؛ وقد كان على نية إصدار ديوان : « أغاني الشعب » لولا أن عاجلته المنية . فلو أن أدباء العربية ذكروا يوماً أن عليهم واجباً لإمام من أئمة الأدب العربي كان يعيش في هذا العصر فاجتمعوا على العناية بآثاره وإتمام رسالته الأدبية ، لأخرجوا لقراء العربية ذخراً من الأدب والبيان الرفيع لا يقدر على إنشاء مثله جيل كامل من مثل أدباء هذا الزمان ... !